المعنى السِّياسيُّ في العيد

ما أشدَّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهماً جديداً ! نتلقَّاها به ، ونأخذُها من ناحيته ، فتجيء أياماً سعيدةً عاملةً ، تنبِّه فينا أوصافها القويَّة ، وتجدِّد نفوسَنا بمعانيها ، لا كما تجيء الآن كالِحةً ، عاطلةً ، ممسوخةً من المعنى ، أكبرُ عملها تجديدُ الثِّياب ، وتحديد الفراغ ، وزيادة ابتسامةٍ على النِّفاق .

فالعيد إنَّما هو المعنى الذي يكون في اليومِ ، لا اليومُ نفسُه ، وكما يفهمُ الناس هذا المعنى يتلقَّون هذا اليوم ، وكان العيدُ في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة ، فأصبح عبدَ الفكرة العابثة ؛ وكانت عبادة الفكرة جَمْعَها الأمَّةَ في إرادةٍ واحدةٍ على حقيقةٍ عمليَّةٍ ، فأصبح عبَث الفكرة جمْعَها الأمةَ على تقليدٍ بغير حقيقةٍ ؛ له مظهرُ المنفعة ، وليس له معناها .

كان العيدُ إثباتَ الأمَّة وجودَها الرُّوحانيَّ في أجملِ معانيه ، فأصبح إثباتَ الأمَّة وجودها الحيوانيَّ في أكثر معانيه ، وكان يومَ استرواح القوَّة من جِدِّها ، فعاد يومَ استراحةِ الضَّعفِ من ذُلِّه ، وكان يومَ المبدأ ، فرجع يومَ المادَّة !

* * *

ليس العيدُ إلا إشعار هذه الأمَّة بأنَّ فيها قوَّةَ تغيير الأيام ، لا إشعارها بأنَّ الأيام تتغيَّر ، وليس العيدُ للأمَّة إلا يوماً تعرض فيه جمالَ نظامِها الاجتماعيِّ ، فيكون يومَ الشُّعور الواحد في نفوس الجميع ، والكلمة الواحدة في ألسنة الجميع ، يوم الشُّعور بالقدرة على تغيير الأيام ، لا القدرة على تغيير الثِّياب . . كأنَّما العيد هو استراحة الأسلحة يوماً في شعبها الحربيِّ .

وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمَّة كيف تتَّسع روح الجِوار ، وتمتدُّ حتَّى يرجع البلدُ العظيم وكأنَّه لأهله دارٌ واحدةٌ ، يتحقَّق فيها الإخاءُ بمعناه العمليِّ ، وتظهر فضيلة الإخلاص مُسْتعْلِنةً للجميع ، ويُهدِي النَّاس بعضهم إلى بعضٍ هدايا القلوب المخلصة المحِبَّة ، وكأنَّما العيد هو إطلاق روح الأسْرَةِ الواحدة في الأمَّة كلِّها .

وليس العيد إلا إظهار الذَّاتيَّة الجميلة للشَّعب مهزوزةً من نشاط الحياة ، ولا ذاتيةَ للأمم الضَّعيفة ؛ ولا نشاطَ للأمم المستعبَدة . فالعيد صوت القوَّة يهتف بالأمَّة : أَخرجي يوم أفراحك ، أَخرجي يوماً كأيَّام النَّصر !

وليس العيد إلا إبراز الكتلة الاجتماعيَّة للأمَّة متميزةً بطابَعِها الشَّعبيِّ ، مفصولةً من الأجانب ، لابسةً من عمل أيديها ، معلنةً بعيدها استقلالين في وجودها ، وصناعتها ، ظاهرةً بقوَّتين في إيمانها ، وطبيعتها ، مبتهجةً بفرحَين في دُورها ، وأسواقها ، فكأنَّ العيدَ يومٌ يفرح فيه الشَّعبُ كلُّه بخصائصه .

وليس العيد إلا التقاءَ الكبارِ ، والصِّغار في معنى الفرح بالحياة النَّاجحة المتقدِّمة في طريقها ، وترْكَ الصِّغار يُلقون دَرسَهم الطَّبيعيَّ في حماسة الفرح ، والبهجة ، ويعلِّمون كبارَهم كيف توضَع المعاني في بعض الألفاظ التي فرَغتْ عندهم من معانيها ، ويبصِّرونهم كيف ينبغي أن تعملَ الصِّفاتُ الإنسانيَّة في الجموع عملَ الحليف لحليفه ، لا عملَ المنابِذ لمنابذه ؛ فالعيد يوم تسلُّط العنصر الحيِّ على نفسيَّة الشَّعب .

وليس العيد إلا تعليم الأمَّة كيف توجِّه بقوَّتها حركة الزَّمن إلى معنًى واحدٍ كلَّما شاءت ؛ فقد وضع لها الدِّينُ هذه القاعدةَ ؛ لتخرجَ عليها الأمثلة ، فتجعلَ للوطن عيداً ماليّاً اقتصادياً ، تبتسم فيه الدَّراهم بعضُها إلى بعضٍ ، وتخترع الصِّناعة عيدَها ، وتوجد للعلم عيدَه ، وتبتدع للفنِّ مَجالَيْ زينتِه ، وبالجملة تنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القُوَّاد العسكريين في قيادة الشعب ، يقودُه كلُّ يوم منها إلى معنى من معاني النَّصر .

* * *

هذه المعاني السِّياسيَّةُ القويَّة هي التي من أجلها فُرض العيد ميراثاً دهرياً[1] في الإسلام ؛ ليستخرج أهلُ كلِّ زمنٍ من معاني زمنهم ، فيُضيفوا إلى المثال أمثلةً ممَّا يُبدعه نشاطُ الأمَّة ، ويحقِّقه خيالُها ، وتقتضيه مصالِحُها .

وما أحسب الجمعةَ قد فُرضت على المسلمين عيداً أسبوعياً يُشترط فيه الخطيبُ ، والمنبر ، والمسجد الجامع ؛ إلا تهيئةً لذلك المعنى ، وإعداداً له ، ففي كلِّ سبعة أيامٍ مسلمةٍ يومٌ يجيءُ ، فيُشعِرُ النَّاس معنى القائد الحربيِّ للشَّعب كلِّه .

ألا ليت المنابر الإسلاميَّة لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواح المدافع ! لا رجالٌ في أيديهم سيوفٌ من خشبٍ[2] . . .

---

(١) « دهرياً » : دائماً .

(٢) انظر (قصة الأيدي المتوضئة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب . (ع) .